الباب الثانى

أصول الخطابة ومقوماتها

أصول الخطابة ومقوماتها

من التعريفات السابقة عن الخطابة علمنا أنها: فن من فنون الكلام يقصد به التأثير فى الجمهور عن طريق السمع والبصر معا..**فما المقصود بذلك؟!**

(١) ما يدخل أثره عن طريق السمع :

(أ) الأسلوب (ب) الإلقاء (ج) الصوت

(٢) ما يدخل أثره عن طريق البصر :

(أ) الوقفة والهيئة (ب) الحركة والملامح.

وتلك هى مقومات هذا الفن.. ولنتكلم عن كل واحدة من هذه المقومات بإسهاب بعض الشىء.

أولاً: الأسلوب

يقولون إن من البيان لسحرا. والخطيب الحصيف يمكنه أن يسحر الأفئدة بقوة فكرته، وحسن إلقائه، وعذوبة كلامه، وسهولة عرضه، ووضوح فكرته.

والخطيب لايصل إلى الأذهان إلا عن طريق الآذان. للآذان ذوق فى الجمال لابد من مراعاته ومرضاته حتى يصل لقلوب مستمعيه.

فالخطيب الحاذق هو الذى يصوغ خطبته فى أسلوب يتخير له الألفاظ المتسقة والجمل المتراصة والفقرات المترابطة والأساليب السهلة.

وعليه بالافتنان فى تنويع الأسلوب والقصد فيه.. ولذلك يحسن أن يكون الخطيب ملما بثروة كبيرة من آداب اللغة ومروياتها وأساليبها وألفاظها.

وعلى الخطيب أن يتجنب التكرار إذ هو عيب مخل فى الخطبة.

والكلام لايقاس بطوله، بل بمقدار فائدته،ولقد كان رسول الله ﷺ أقل الناس كلاما وكانت خطبته مختصرة موجزة. والمروى من خطبه صلوات الله وسلامه عليه قليل ومختصر ولكن فائدته عظيمة.

وعلى الخطيب أيضا أن يكون ملما بآداب اللغة وطرائف المرويات، ذواقة للشعر والنثر حتى يمكنه ذلك من التعبير عما فى ضميره، ونقل ما فى نفسه إلى نفوس الآخرين بعبارة رقيقة وأداء مستحب.

▪ **ونضع أمام الخطيب هذه الأمور لكى يراعيها فى تخير الأسلوب:**

- توخى الأساليب السهلة.
- تنوع الأسلوب.
- تخير الألفاظ .
- الاعتماد على العاطفة والشعور. بمعنى أن يكون الخطيب يقظ القلب جياش المشاعر صادق اللهجة.

وأخيراً كلما كان الخطيب مخلصاً فى قوله، معتقدا صدق كلامه، كلما اتخذ سبيله إلى القلوب. فإن الكلام إذا خرج من القلب وقع فى القلب، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الآذان.

وقد قال النووى فى هذا الصدد: "يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة مرتبة مبينة من غير تمطيط ولا تقصير، ولا تكون ألفاظا ملفقة، فإنها لاتقع فى النفوس موقعاً كاملاً، ولا تكون وحشية نافرة فإنها لا تحصل المقصود منها بل يختار ألفاظا سهلة جزلة مفعمة".

وقال ابن القيم:"وكذلك كانت خطبة الرسول ﷺ إنما هى تقرير لأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وذكر الجنة والنار،وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته. وما أعد لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبته إيمانا وتوحيدا ومعرفة بالله وآلائه.

ثانيا: الإلقـاء

لحسن الإلقاء أثر عظيم فى نجاح الخطبة، ولذلك ينبغى اهتمـام الخطيب به. فقد تسمع خطبتين ذات موضوع واحد إلا أنك تنجـذب لإحداهما وتثير انتباهك وإعجابك لحسن إلقـاء الخطيـب وجمـال عرضه وقد تنصرف عن الثانية وتتشتت لإلقـاء الخطيـب الـسيئ وضعف عرضه للموضوع.

وقد يكون أسلوب الخطبة غير بليغ فيرفعـه الخطيـب القـادر بفصاحة منطقه وعذوبة إلقائه، فيثير السامع ويلهبه بجمال إلقائه، عن ضعف إنشائه.

والإلقاء الحسن يتمثل فى:الوضوح والطلاقة وتمثيـل المعـانى والعواطف وذلك بتغيير اللهجة وبتنويع الصوت، فيهـدأ الخطيـب ويبطئ ويسرع ويغضب ويعجب. ويسأل ويجيب. وكل ذلـك فـى استقامة لغة وسلامة منطق وبعد عن اللكنة وما يتبعـه مـن كثـرة اللجلجة والتلعثم والالتجاء إلى جمل الإستعانة كتكرير أيهـا الـسادة مثلا... وهكذا.

وهكذا لا يبلغ الخطيب غايته إلا إذا كان حسن الإلقـاء، جميـل الأداء، قوى الروح ليواجه السامعين بالحق الواضح والذكر المبين.

ثالثا: الصـوت

من الصفات الحسية اللازمة للخطيب الصوت، والعناية برفعه أو خفضه فى المواضع المختلفة من الأشياء المهمة، إذ هو طريق نقـل الفكرة إلى الآذان، فلابد أن يكون جيداً حلو النغمة، صافى الـرنين، خالص النبرات.

ويجب على الخطيب أن يعنى به ويقف على قوة ارتفاعه ومدى اتساعه حتى لا يكلفه فوق طاقته فيضحل ويتهدج.

ويحسن مع ذلك أن يبدأ الخطيب به فى انخفاض وتأن ثم برفعه رويدا رويدا حتى يبلغ به أقصى قوته، ثـم يـردده بـين الـصعود

والهبـــوط مغيـــرا فى ميزاته ونغماته ووقفاته تبعا للمعنـــى الـــذى يؤديه محاذرا ألا يخرج بـــه عن مستواه.

رابعا: الوقفة والهيئة

والمقصود بالوقفة: أن يكون الخطيب ثابت الجنان، شجاع القلب لايحمل شيئا من الجبن والخور، ولا يهـــاب أحـــدا إلا الله. متمالـــك الأعصاب. هادئ الأنفاس مستقيم الصوت.

والمقصود بالهيئـــة: وضاءة الطلعة وحسن الهندام. وإن كانـــت هذه صفات كمالية قد يغنى عنها جمال الأسلوب وحسن الإلقـــاء، إلا أن هذه أمور تجب العناية بها.

ذلك أن الخطيب مطمح أنظار الناس ومحل تقديرهم، فإذا كـــان حسن المنظر، جميل الهندام، كان موضع تقدير ومحل احتـــرام، وإن كان على العكس من ذلك فإنه قد يلقى إعراضاً ونفوراً.

وقد قيل إن معاوية لما رأى النخار مرتديا عباءة رثة أنكر مكانه وهيئته حتى اضطر النخار إلى أن يقـــول: "إن العبـــاءة لا تكلمـــك ولكن يكلمك من فيها"(١).

فالواجب على الخطيب أن يكون وجيها كى يوقره الكبير ويهابه الصغير، ويأخذ كلامه الطريق إلى القلوب.

والمقصود بالوجاهة هنا: ليست مبالغة الخطيب فى مظهـــره أو فى سيرته، بل يتحفظ ويجعل هيئته مقبولة بين الناس.

قال رجل لعبد الله بن عمر: "ما ألبس"، قال: "ألبس مالا يعيبـــك عليه العلماء ولا يزدريك فيه السفهاء". أى أن ملابس الخطيب يجب أن تكون بحيث لا يحتقره فيها الرعاع، ولايظن غيرهم أنه يتكلـــف فى تجمله وزينته.

---

(١) الخطابة فى الإسلام... للدكتور جمعة الخولى والدكتور مصلح بيومى.

ومن كلام الإمام عبد الرحمن بن الجوزى: "على أهل العلم أن يظهروا مروءاتهم فى ثيابهم إكراما للعلم وإجلالاً له".

ويقول الإمام مالك:"التواضع فى التقى والدين لا فى اللباس".

خامسا: الحركة والملامح

يقصد بهما: الإشارات التى يمكن أن تشارك مع الكلمات والنبرات، كإشارات اليد التى تساعد على تثبيت الكلمات فى النفس، لأن الكلام إذا كان طريقه الأذن،فالإشارة تشرك العين مع الأذن فى الإحاطة بالمعنى وتصوره. ولذلك كانت الحركات عنصرا من عناصر العمل الروائى، وهى كذلك جزء من أجزاء الفن الخطابى لنفعها وإفادتها.

فاستعمال إشارة اليد تؤكد المعنى، وأسرار الوجه تكشف عن أسرار الضمير.

والخطيب يستطيع أن يعبر بملامح وجهه عن اللذة والألم والرضا والسخط والنفور والميل والسرور والحزن.

ويعبر بالعيون عن العواطف المختلفة فيرفعها إلى السماء فى الألم الشديد والدعاء، ويخفضها إلى الأرض فى التفكير والحيرة والخشوع والحياء، أو يفتحها عند الاندهاش والإعجاب، ويطبقها عند التواضع والمسكنة.. وهكذا نرى أن كليهما عامل مساعد للخطيب.. عند إيصاله الفكرة للمستمع.

ويروى التاريخ القديم عن مصعب بن الزبير أنه باستعمال الإشارة اليدوية أثناء إلقائه لبعض آيات القرآن الكريم رسم فى نفوس السامعين كل الذكريات الدينية التى تشير إليها هذه الآيات، وكأنما يحمل هذه النفوس حملا بإشارته إلى المواطن التى تعنيها هذه الآيات، فيجد السامع نفسه فى موكب من الذكريات التى تكاد الإشارة أن تجسدها له تجسيدا.

إن مصعب بن الزبير قدم العراق فقال: **بسم الله الرحمن**

الرحيم ﴿طسٓمٓ * تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ * إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[1] وأشار بيده نحو الشام إلى حيث نشأ موسى -عليه السلام- وإلى حيث هاجر بقومه بعدما كان من أمر فرعون، فكأنه أشار إلى مسرح تلك الحوادث فارتسمت فى أذهان السامعين بعد أن مرت عليها مئات الأجيال.

ثم استطرد مصعب بن الزبير يقول: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ ، وأشار بيده نحو الحجاز، ثم قرأ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ .

- **شروط نجاح الإشارة:**

الخطيب الموفق هو الذى يضع الإشارة والحركة فى محلها ومجالها، وهناك شروط لذلك حتى تحقق الغرض منها.. نذكر منها ما يلى:

(١) أن يقتصد فى استعمالها قدر الإمكان، فلا يبالغ ولايتكلف ولايكذب.

(٢) أن تتفق مع المعنى فتهبط وتهدأ وتسرع وتثور تبعا له.

(٣) ألا تسبق الكلام وألا تأتى بعده.

(٤) أن يكون حكيما فى استعمالها حيث تناسب ما ينطق به لكى تجىء الإشارة جزءاً متمماً للكلام موضحة له، وحتى يكون فى استعمالها دقيقاً وموفقاً.

---

(١) سورة القصص الآيات ١:٤.